جامعة الشهيد حمه لخضر – الوادي

مقياس : العلاقات بين الغرب الاسلامي والعالم المسيحي

المستوى : ثانية ماستر تاريخ وسيط

الأستاذ : سليم حاج سعد

محاضرة رقم 01

تأثير الإسلام في التفكير الديني المسيحي خلال العصور الوسطى

أصبحت أروبا مركز الثقافة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي، وذلك بعد اطلاع الغربيين على الدراسة الدينية الإسلامية، من خلال اتصالهم ونقلهم لأفكار وآراء مفكرين مسلمين أندلسيين في إسبانيا المسلمة وعاصمتها آنذاك، قرطبة.

وتحدثنا المصادر عن الصلات الفكرية الوثيقة بين أروبا المسيحية والأندلس الإسلامية عن طريق المهاجرين والتجار والطلبة والأسرى والسفراء والمدجنين والمورسكيين والمرتدين، ووقوع بعض المدُن الإسلامية تحت الحكم المسيحي تارة وعودتها للحكم الإسلامي تارة أخرى، كما كانت أروبا المسيحية مقبلة على الثقافة الإسلامية إقبالا كبيرا. وإذن فلا مفر من القول بأن الثقافة الإسلامية قامت بدور المرشد الأمين، وأمدت متعلمي القرون الوسطى بمادة كثيرة لدراستهم(1).

إن أثر الإسلام في حياة أروبا الدينية لا يقل أبدا عن أثره في حياتها الفلسفية والعلمية والتقنية. يتضح ذلك من خلال إلقاء الضوء الكافي على الجانب التاريخي من اتصال الدينين المسيحي والإسلامي ببيان هذا الاتصال وأثره. وطرائق نقل المعارف الدينية الإسلامية وأثرها في الحياة المسيحية وفي العقلية المسيحية بشكل عام.

---

(1) ألفريد جيوم، **تراث الإسلام**، ج 1، ص. 234؛ وراجع كذلك، زيغريد هونكه، **شمس الله تسطع على الغرب**، ترجمه عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت 1981، ص. 25.

وقد بدأ ذلك الاتصال عن طريق الدراسة في الجامعات الإسلامية وتأثر المسيحيين بمناهج التعليم الإسلامي[2] ونمو حركة النقل والترجمة على يد علماء مسيحيين «فالبابا سلفستر الثاني (999 م) قد تعلم على العرب في بلادهم، وكذا قسطنطين الإفريقي الملقب بمعلم الشرق والغرب في القرن الحادي عشر الميلادي كان ذا نشاط عجيب في ترجمة العلوم عن العربية بل نرى للترجمة دوائر منظمة يؤيدها ملوك مشهورون في نواحي مختلفة من أروبا، ففي صقلية ونابلي وطليطلة وقشتالة وفرنسا تقام تلك المعاهد، وترى ملوك أقوياء يبذلون جاههم ومالهم لحماية تلك الحركة وزيادة نشاطها على نحو ما كان معروفا في قصور ملوك الشرق المسلمين»[3].

وهكذا أصبحت الثقافة الإسلامية منتشرة في جميع أنحاء أروبا في القرن الثالث عشر الميلادي بفعل ثلاث عوامل رئيسية :

1 ـ معرفة الأوربيين للغة العربية، لغة المعارف الإسلامية والدين الإسلامي.

2 ـ الاتصال الفلسفي بين أروبا والأمم الإسلامية، لما كانت هناك من صلة قوية بين الفلسفة والحياة الدينية في تلك الحقبة.

3 ـ معرفة الأوربيين للعلوم الدينية الإسلامية.

وهكذا سينصب الاهتمام في هذا البحث على إسبانيا الإسلامية، باعتبارها مرآة صافية يتجلى فيها شتات المذاهب الإسلامية، كما كانت أداة هامة في نقل تأثير العرب إلى الغرب[4].

فاللغة العربية ساعد انتشارها على ربط الاتصال بين المسيحية والإسلام، حيث نرى الإسبانيين جيران المسلمين في الغرب يتخذون كتابا من العرب يكتبون عنهم بالعربية إلى المسلمين في الأندلس والمغرب[5] ؛ كما أن الاتصال الحربي بين الطرفين دفع إلى تعلم اللغة العربية، إما لِاقتباس المعارف الإسلامية أو لمحاربة الإسلام

---

(2) من حيث طبيعة الدراسة والعلاقة بين الأستاذ والتلميذ، ورسوم الدراسة والهبات المالية، وإقرار النظام، ومنح الدرجات... انظر: **تراث الإسلام** لألفريد جيوم، ج 1، ص. 235.

(3) أمين الخولي، **صلة الإسلام بإصلاح المسيحية**، ص. 36. فقد كان ألفونسو الحكيم يصحح بنفسه ما يترجم إلى اللغة اللاتينية.

(4) ألفريد جيوم، المصدر السابق، 88/1 و101 و102 و271.

(5) ابن خلكان، **وفيات**، 429/2.

والتبشير بالمسيحية. ونذكر على سبيل المثال ريموند لول (Raymund Lull) الإسباني الذي كان يحسن اللغة العربية فيؤسس سنة 1276 م كلية للرهبان في «ميرامار» لدراسة اللغة العربية[6] ؛ كما أسست أول مدرسة عرفتها أروبا في طليطلة على يد المبشرين، وفيها كانت تعلم العربية[7] كما كانت تعلم العبرية وغيرها من مواد تعين على إخراج مبشرين ضد الإسلام[8].

أما فيما يتعلق بالجانب الفلسفي، فنستطيع القول بأن فلسفة العصور الوسطى كانت إسلامية القيادة : فلم يلبث الغربيون بعدما ذكرنا من اتصالهم بالإسلام أن عرفوا ودرسوا فلاسفة الإسلام جميعا شرقيين وغربيين، كالكندي والفارابي، وابن سينا، والغزالي، وابن رشد. وهكذا ظهر التأثر بهؤلاء الفلاسفة المسلمين في تفكير المفكرين الغربيين في أقصى أنحاء أروبا. فكان «يوحنادنس سكوث» الاسكتلاندي (ق13ـ14) يستوحي تأثير الارسطاليسية الإسلامية وبخاصة من ابن سينا، و«إسكندر الهاليسي» الذي درس وعلم في باريس يعتمد على الشروح العربية لابن سينا وابن رشد. وألبرت الكبير سيتأثر بابن سينا حتى ليقول عنه رينان : «إنه مدين بكل شيء لابن سينا» كما أن القديس توما الأكويني في إيطاليا مدين كذلك لابن رشد وهو في الوقت نفسه ممن تأثر بالغزالي[9].

لقد ترك طابع الغزالي العقلي والديني، أثراً على الباحثين النصارى، واستعمل المسيحيون في كثير من رسائلهم العلمية براهين الغزالي على مسائل لاهوتية ؛ كما أن الحركة الصوفية في أروبا تأثرت بعناصر إسلامية[10].

إن انتشار اللغة العربية في أروبا، وأخذ الفلسفة والعلم عن مصادر إسلامية ساعدا على معرفة الأوروبيين للعلوم الدينية. ففي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، ترجم القرآن إلى اللاتينية، رغبة في نقده ومناقشته وبالضبط سنة 1143. وهي الترجمة التي طبعت بعد ذلك بأربعة قرون في مدينة بازل سنة 1543 م[11].

(6) إرنست باركر، تراث الإسلام ج 1، ص. 124ـ125.
(7) ألفريد جيوم، تراث الإسلام، 1/300ـ301.
(8) ألفريد جيوم، المصدر السابق.
(9) جوستاف لبون، حضارة العرب، ص. 618؛ وتراث الإسلام، 1/303.
(10) أمين الخولي، صلة الإسلام بإصلاح المسيحية، ص. 44.
(11) جيوم، المصدر السابق، ج 1، ص. 300.

ومن بين اللاهوتيين المسيحيين في الغرب : «ريموند لول» الإسباني السابق الذكر. فقد أجمع الباحثون الغربيون على صلته بالمصادر الإسلامية وأثرها فيما ترك من مؤلفاته. ولا يخامرهم شك في اقتباسه قسما عظيما من لاهوته عن العرب، كما تنم عن ذلك رسالته عن أسماء الله المائة[12]. كما يتحدث في كتابه «Blanquerna» عن «الرباطات» ونظام الدراويش وما يتضمنه من إثارة حالات الجذب والعبادة بإنشاد كلمات معينة على نمط معروف. والحق أن ما كان بين «لول» وما شاع في العالم الإسلامي من أوجه الشبه، في شؤون اللغة والعادات وطريقة المعيشة، إنما مرده إلى ملاحظته للحياة الدينية عند معاصريه من المسلمين وشغفه بها أكثر ممن يمكن رده إلى نفوذ النساك في العصور المسيحية الأولى[13].

أما رايمون مارتان (Raymund Martin)، فقد تأثر هو أيضا بكتابات المسلمين. ففي كتابه «**الدفاع عن الإيمان**» يتأثر إلى حد كبير بكتاب «**تهافت الفلاسفة**» للغزالي. واستفاد المسيحيون في كثير من أبحاثهم العلمية منذ ذلك الحين من آراء الغزالي فيما يتعلق بإثبات الخلق من العدم، والأدلة التي اعتمد عليها في البرهنة على أن علم الله شامل للجزئيات، وعقيدة البعث بعد الممات[14].

ومع ما رأيناه من اطلاع الغرب المسيحي على الدراسة الدينية الإسلامية في الغرب الإسلامي، لابد من أن نشير في هذا الصدد إلى حركة التجديد الديني أو الدراسة النقدية للأفكار الدينية (على حد تعبير أثين بلاسيوس) التي تزعمها ابن حزم الظاهري في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، والتي أثرت بشكل كبير ـ كما سيتضح ـ في الفكر المسيحي.

وإذا كنا نتوفر اليوم على دراسات نقدية بالغة الأهمية وأكثريتها مما كتبه يهود ومسيحيون تكشف عما في العهدين القديم والجديد من وثنية وتناقض وتحريف. فمن الواجب أن لا ننسى فضل الرائد الأول السابق لاقتحام هذا الميدان الخطير[15]. فقد كان ابن حزم كثير المناظرة لليهود والنصارى حسبما تكررت إشارته إلى ذلك في كتابه

---

(12) جيوم، **المصدر السابق**،ج 1، ص. 300.

(13) ألفريد جيوم، **المصدر السابق**، ج 1، ص.300ـ301.

(14) ألفريد جيوم، **المصدر السابق**، ج 1، ص. 301.

(15) محمد ابراهيم الكتاني، «هل أثر ابن حزم في الفكر المسيحي ؟»، **مجلة البينة**، العدد الثاني، يونيو 1962، ص. 69.

«الفصل»، كما كان يعرف اللغة اللاتينية[16]، وقال عنه معاصره شيخ الأندلس ابن حيان أثناء ترجمته له : «ولهذا الشيخ أبي محمد مع اليهود ـ لعنهم الله ـ ومع غيرهم من أولي المذاهب المرفوضة من أهل الإسلام مجالس محفوظة، وأخبار مكتوبة، وله مصنفات في ذلك معروفة»[17]. كما يحدثنا ابن بسام في موضع آخر ان ابن النغريلي اليهودي «ألف كتابا في الرد على الفقيه أبي محمد ابن حزم»[18] وكان خصوم ابن حزم ينتقدون عليه ـ فيما ينتقدون ـ اشتغاله بدراسة التوراة والإنجيل ومناظرة أصحابهما[19]. لقد وضع ابن حزم علم تاريخ الأديان المقارن في الغرب الإسلامي، واستخدمه في التدليل على صحة الديانة الإسلامية، وبذلك أصبح له المقام الممتاز بين الدراسات الدينية العليا في مختلف جامعات الغرب المسيحي. وقد تكلم المستشرق الإسباني ميكَيل أثين بلاسيوس (Miguel Asin Palacios) عن هذا المشروع الحزمي الكبير وعن هذا التجديد الثقافي في كتابه المشهور عن ابن حزم[20]، ملاحظا النشأة المتأخرة لتاريخ الديانات في أروبا المسيحية، وعن الأسباب التي ترتبت عنها أسبقية البلاد الإسلامية في هذا الموضوع، وانعدام هذه الأسباب في أروبا المسيحية في القرون الوسطى.

إن الحركة النقدية التجديدية التي تزعمها آبن حزم، سواء على مستوى الفكر الإسلامي، أو الفكر المسيحي، قد أثرت بشكل كبير في حركة الإصلاح المسيحي وفي نقاد القرن الثامن عشر أمثال فولتير، وبولنج بروك وغيرهما[21]. كما ناقش ابن حزم عقيدة بولس، وإليها يعزو التحريف في آراء عيسى الحقيقية. هذه الفكرة كانت أول محرك للمدرسة البروتستانتية النقدية الحرة[22]. إذ يتميز أصحابها بالتفريق بين الديانة المسيحية الأصلية وإنجيل «بولس» الذي يتهمه ـ كما يتهمونه ـ بأنه أول مشوه لإنجيل عيسى[23].

(16) ابن حزم، **التقريب لحد المنطق**، تحقيق د. إحسان عباس، 1959، ص. 15 ـ 52، 54.

(17) ابن بسام، **الدخيرة**، 143/1.

(18) ابن بسام، **المصدر السابق**، 269/2.

(19) **المصدر السابق**، 137/1.

(20) **M.A. Palacios, Aben Hazam de Cordoba, y su critica de las ideas religiosas, Madrid 1927-1928.**

(21) محمد ابراهيم الكتاني، **المصدر السابق**، ص. 73.

(22) تزعمها ثلاثة من النقاد الألمانيين من القرن 19. وكانوا من البروتستانتيين الأحرار. آنظر: ابراهيم الكتاني، **المصدر السابق**، ص. 75.

(23) ابن حزم، الفصل 1، ص. 221.

إن العلاقة وطيدة، والصلة وثيقة بين مدرسة الغرب الإسلامي التي تزعم مشروعها الثقافي التجديدي «ابن حزم» والحياة الثقافية والفلسفية والدينية للغرب المسيحي. فواضح أن الثقافة الإسلامية كانت منتشرة بالأندلس التي كان بها عدد كبير من اليهود والنصارى وكان ابن حزم على صلة وثيقة بكثير منهم. وكان كثير الجدل لهم والمناظرة معهم. فمن الطبيعي أن تثير حملاته العنيفة على التّوراة والإنجيل ضجة فكرية في الأوساط اليهودية والمسيحية لا تقل عن الضجة التي أثارها في الأوساط الإسلامية ضد المالكية والأشاعرة والتقليد المذهبي بوجه عام(24).

ومما يؤكد تأثير ابن حزم في الفكر المسيحي الغربي خلال العصور الوسطى التشابه الكبير الذي لاحظه المستشرق الإسباني إيميليو غارسيا جوميز (Emilio Garcia Gomez) في المقدمة الحافلة التي صدر بها ترجمته الإسبانية لكتاب ابن حزم العالمي «**طوق الحمامة**» عن التشابه الموجود بين «**طوق الحمامة**» وكتاب «**الحب الطيّب**» (El libro del buen Amor) لخوان رويث (Juan Ruiz) نائب الأسقف في ناحية هيثا، بوادي الحجارة. وهو قشتالي من أهل القرن 14 م. وقارن بين أربعة نصوص من الكتابين لا تدع مجالا للشك في معرفة خوان رويث بـ«**طوق الحمامة**»(25). كما لاحظ أن هناك تشابها بين «**الطوق**» وبعض فقرات «**ضون كيخوت**» Don Quijote لسيرفانتس (Cervantes) (القرن 16 م) وكذا بين «**الطوق**» وبعض مسرحيات الكاتب الشهير لوبي دي فيكا (Lope de Vega) (القرن 17).

وجملة القول إن كثيرا من النظريات التي رددها المفكرون المسلمون تبعهم فيها المسيحيون. من ذلك النظرية التي تحتج لضرورة الوحي، ونظرية التوفيق بين العقل والإيمان : فكلتاهما مما ردده ابن حزم وابن رشد، وموسى بن ميمون ؛ وعن هؤلاء أخذها توماس الأكويني والراهب الإسباني دومنيكوس (القرن 13)، وروجير بيكون. وغيرهم كثير. إن علاقة التأثير والتأثر بين الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال، العصور الوسطى، ستنعكس على حركة الإصلاح المسيحي التي تزعمها النقاد البروتستانتيون. فبالرجوع إلى المصادر النقدية التي تحدثت عن الحركات

(24) ابراهيم الكتاني، المصدر السابق، ص. 77.

(25) El Collar dela pol Ma., «Tratado sobre el amor y los amantes de Ibn Hzm de o Cordoba», Traducido del arabe por Emilio Garcia Gomez, Madrid 1952, pp. 51-56.

التحريرية التشريعية التي قاومت التقليد، نلمس تقاربا واضحا فيما بينها، وخاصة في فكرة الرجوع إلى المصادر الأولى وعدم التقليد. إن فكرة التعويل على الإنجيل ونبذ ما عداه قال بها القالديون في القرن 12 م وهم فرقة ظهرت في جنوبي فرنسا في بيئة لها صلة عملية وعقلية بالإسلام مع مجاورتها القريبة لإسبانيا الإسلامية[26]. ولا يستبعد أن تكون هذه الفكرة على صلة بالحركة الظاهرية بالأندلس وتمثيل ابن حزم لها هناك، وعمله على أخذ العقائد من الكتاب وصحيح الحديث فقط[27].

وفي العصر الموحدي سادت حركة تشريعية تجديدية قاومت التقليد واعتمدت على السلطة التنفيذية للحكومة الإسلامية اعتماداً لا نكاد نجد له نظيرا في تاريخ التشريع الإسلامي، وهي الحركة التي قام بها المنصور أبو يوسف يعقوب الموحدي الذي حكم المغرب والأندلس في النصف الثاني من القرن 12م، حيث أمر برفض فروع الفقه وألزم الفقهاء بعدم تقليد أحد الأئمة المجتهدين المتقدمين واقتصارهم في الفتوى والأحكام على القرآن والسنة وما يؤديهم إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والسنة والإجماع والقياس[28]. وإننا لنلمس التشابه الذي يلفت النظر ويثير الانتباه بين الغرب الإسلامي والغرب المسيحي في هذه الفترة حتى في المظاهر العملية لنصرة هذه الفكرة. فأبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي يأمر بإحراق كتب المذهب، فينفذ ذلك وتحرق منها جملة في سائر البلاد. وقد التهمت هذه النار في الغرب المسيحي كثيرا من الآراء، والمفكرين كذلك، سواء على يد الرجال المقاومين للإصلاح أو على يد الداعين إليه[29].

فالتأثر بهذه الفكرة الرائجة ليس من البعدفي شيء، وهي فكرة واضحة الصلة والارتباط بالفكرة الإصلاحية، حين ترى الأخذ بالإنجيل والوقوف عنده فقط واطراح ما وراء ذلك من آراء[30].

ومعلوم أن القرآن الكريم يناقض فكرة بيع التوبة وصكوك الغفران في كثير من آياته، منها : ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى، وإن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ منه

(26) أمين الخولي، صلة الإسلام بإصلاح المسيحية، ص. 67.
(27) أمين الخولي، المصدر السابق، ص. 67.
(28) المراكشي، المعجب، ص. 184، 185.
(29) أمين الخولي، المصدر السابق، ص. 70.
(30) المصدر السابق، ص. 70.

شيء﴾[31] و﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾[32] إلى غير ذلك من الآيات الصريحة التي كانت مترجمة إلى اللاتينية واليونانية قبل الإصلاح بقرون، والتي اتصل بها مثقفو العصور الوسطى.

لقد أعلن الإسلام منذ البداية عن القواسم المشتركة بينه وبين المسيحية باعتبارها دين التوحيد، وعن العلاقات الإنسانية بين المسلمين والمسيحيين ـ رغم الصراع العسكري ـ في العصور الوسطى[33]. فقد دعا القرآن دعوة صريحة إلى علاقة عملية معها، علاقة تبدأ بالإقرار بأن المسيحية رسالة سماوية ﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيّدناه بروح القدس﴾[34] كما يدعو إلى عدم إكراه المسيحيين بالدخول إلى الإسلام، والاكتفاء بإبلاغهم بما جاء به الوحي ﴿... وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم، فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾[35] بينما يصر القرآن على وصف المسيحيين بأنهم أقرب الناس ﴿مودة للذين آمنوا﴾ وذلك لأنهم ﴿لا يستكبرون﴾[36] ينطلق من مبدإ التوحيد ليطلب ممارسة العدالة الكاملة تجاههم : ﴿وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾[37].

انطلاقا من هذه المسلمات «المقدسة» نسج الإسلام علاقته بالمسيحية على أساس التسامح والحوار. والدعوة اليوم إلى حوار الحضارات مازالت في بدايتها. فهل يمكن أن يكون تقارب الأديان سيساهم في السلام العالمي، ونزع السلاح، واحترام حقوق الإنسان ؟

---

(31) سورة فاطر (الآية 18).

(32) سورة المدّثر (الآية 38).

(33) توماس ارنولد، تراث الإسلام، ترجمة جرجس فتح الله، ص. 76ـ80 ؛ وسعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ص. 25.

(34) سورة البقرة (الآية 87). وفي قصة الحضارة، لويل ديورانت، نص طويل يعترف فيه بتسامح الإسلام اتجاه المسيحية. ويورد على ذلك شواهد تاريخية. انظر : المجلد 13ـ14، ص. 130ـ133 ؛ وراجع أيضا : بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ص. 53ـ54، ط. القاهرة.

(35) سورة آل عمران (الآية 20).

(36) سورة المائدة (الآية 82).

(37) سورة الشورى (الآيتان 14ـ15).